«تراجيديا المنصور» للشاعر الالماني هاينريش هاينه في اول ترجمة عربية:

رومانسية مجنون ليلى والعربي «المور» كقناع لليهودي وازمته في المانيا القرن التاسع عشر

ابراهيم درويش*

■ تراجيديا المنصور تعتبر من اول ما كتبه الشاعر الالماني اليهودي هاينريش هاينه (1797 –1856) ، بدأ بكتابتها عام 1820 وانتهى منها عام 1823وهي على الرغم من موضوعها العربي ـ الاسلامي عن الاندلس ومصير العربي ـ «المورز» الا انها تعتبر من الامثلة الباكرة عن الطريقة التي استخدم فيها الاديب العربي ومأساته كقناع ليعكس من خلاله ازمته النفسية ومشكلة مجتمعه اليهودي مع العنصرية والاضطهاد الالماني، وهي من الامثلة المثيرة التي زاوج فيها كاتب يهودي بين مأساة المسلم ومأساة أبناء جنسه اليهود في المانيا، ومما سهل على الشاعر مهمته هو ان اليهود والمسلمين بعد سقوط غرناطة تعرضوا لعمليات التنصير والتهجير وهم الذين عاشوا جنبا الى جنب لقرون في «هسبانيا» او الاندلس. والمسرحية التي ترجمها الى العربية سرجون كرم وراجعها توفيق دواني لا تمثل اعلى ما كتبه الشاعر من اعمال ادبية وتعرضت للانتقاد بسبب مشاكلها التقنية وخلطه بين عدد من المدارس الادبية فهاينه وان كتب في مقدمة عمله المسرحي قائلا ان شكلها هو كلاسيكي اما قلبها فهو رومانسي «رومانسية هي المادة اما الشكل فكلاسيكي والكل نابع من القلب» ولهذا يرى المترجم ان العمل مثير من ناحية موضوعه ولانه يمثل اعلى درجات تماهي الغرب مع الشرق، الذي بدا للشاعر الالماني كساحة للسلام والامان. احداث المسرحية تدور في غرناطة آخر الدول الاسلامية التي سقطت عام 1492 بيد فرديناند ملك اراغونيا وايزابيلا القشتالية. والمسرحية تعكس جوانب من السياسات التي مارسها الملك والملكة على سكان البلاد غير المسيحيين ـ المسلمين واليهود اما التنصر او الخروج. وتحكي في يوم واحد قصة مصائر الاندلسيين عبدالله وفاطمة اللذين آثرا الرحيل عن البلاد مع ابنهما المنصور بعد رفضهما التخلي عن اسلامهما، اما خادمهما حسن فيقرر وهو العجوز التحصن مع رفاقه في الجبال ومقاومة المسيحيين، ولكن الطيب علي صديق عبدالله والغني يغريه البقاء والحفاظ على ثروته ويعتنق المسيحية مع ابنته سليمى التي اصبحت تعرف بدونا كلارا اما هو فاتخذ اسم دون غونزالفو. وقرار الطيب البقاء والتخلي عن اسلامه واخوانه يجعله محلا لحقد وعداوة صديقه عبدالله. في داخل هذا الترتيب حيلة نسبية اتخذها الكاتب لاعلاء شأن التراجيديا، حيث يتبين لاحقا ان سليمى هي الابنة الاصيلة لفاطمة وعبدالله اما المنصور فهو نجل الثري الطيب علي. وقد تبادل الصديقان الاطفال بعد ولادة المنصور ووفاة والدته حيث قرأ فاتحته على سليمى. يكبر المنصور مع سليمى وعندما تسقط غرناطة تتوزع مصائر الحبيبين حيث تبقى سليمى مع والدها المزعوم ويرحل المنصور مع والديه المزعومين، وتضيع اخباره في بلاد العرب لحين رجوعه لاحقا بعد وفاة والديه، عبدالله وفاطمة، يصل المنصور غرناطة ويجد طريقه الى القصر السابق حيث يتعرف على الخادم حسن الذي كان سيقتله بعد مبارزة ويعرف ان سليمى ستتزوج من مخادع اسباني يدعى انريك بعد ان فقدت الامل في عودة المنصور، وانريك الطامع في ثروة سليمى يزور هويته ويقدم نفسه على انه احد النبلاء الاسبان. يظهر المنصور تحت شرفة سليمى مثل روميو الباحث عن جوليته وتتعرف عليه ولكنها تقنعه باعتناق المسيحية الامر الذي لا يعارضه المنصور ولكن عندما تقول له انها مصممة على الزواج من انريك يغضب وينكفئ على نفسه مفكرا بالانتحار، حيث يظهر له العجوز حسن ويقنعه باختطاف سليمى وفعلا يقوم المنصور بمساعدة عدد من الفرسان بخطف سليمى بمساعدة حسن حيث يجرح الخادم جرحا قاتلا ويهرب المنصور الى الجبال مع حبيبته الغائبة عن الوعي. وقبل وفاته يبوح حسن بالسر للطيب علي حيث يقول له ان الرجل الذي خطف سليمى هو ابنه الحقيقي عندها يعلن الطيب علي زواجها ولكن بعد فوات الاوان حيث يحاصر المنصور الجريح في الجبل فيما تستفيق محبوبته من غيبوبتها وتعتقد انها في السماء وتبوح له بحبها وعندما يشعر المنصور ان لا طاقة له بمواجهة الفرسان يرمي نفسه وحبيبته من الجبل الى الوادي الصخري، حيث يحضر للمنصور مجنون ليلى ويتقمص شخصيته. هذا هو الاطار العام للتراجيديا التي لا تختلف في نهايتها المأساوية عن اية قصة حب رومانسية ولكن النص هو قناع ومجاز عن الحالة النفسية للشاعر هاينه الذي احب ابنة عمه اميالي وكان الحب فاشلا وتركت التجربة هذه علاماتها على الشاعر ونفسيته، فالقصر الذي تدور فيه معظم الاحداث هو صورة عن قصر عمه سلمون هاينه والد حبيبته. وعليه فالمنصور هو المرآة التي عكس من خلالها الشاعر ازمته العاطفية ووظفها لتقديم حكاية رومانسية في اعلى تجلياتها، الحب القاتل النازع للانتحار واللقاء بين الحبيبين الذي لا يتم في هذه الارض ولكن في السماء . وينقل المترجم رسالة كتبها هاينه عام 1820 بعد ان انجز المشهد الثالث منها يتحدث عن ان العمل ربما لن يلقى الاهتمام الكبير الا انه وضع فيه ذاته وتناقضاته وحكمته وحبه وحقده وجنونه. التاريخ العربي والمأساة التي لحقت بالاندلسيين تحولت في تراجيديا المنصور لمعادل ذاتي عن الشاعر ومعاناة اليهود في المانيا، وهاينه وان لم يخترع الشرق في ادبه الا انه الح على استخدامه بشكل واضح في اعمال لاحقة مثل دونا كلارا والمنصور، فقد استخدم هاينه مادة الشرق التي بدأت تحضر اعمال الادباء الالمان والفرنسيين، وهو ما لخصه فيكتور هيغو في مقال له «الشرقيون» (1829) وجاء فيه «كنا هللينيون اما الان فنحن شرقيون»، والشرق في ادب نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر لم يعد مادة للابداع بل موضوعا للالهام والانفتاح على اللانهائي. كان هاينه يتكئ على تراث ادبي جعل الشرق محطا لاهتمامه وموضوعاته، وهو الذي تكون فعلا بعد وصول الف ليلة وليلة التي ترجمها انطوان جالان في بداية القرن الثامن عشر، وتزايد الاهتمام به بعد حملة نابليون بونابرت على مصر عام 1798 التي يتخذها البعض نقطة بداية للقاء الشرق والغرب. ولا ريب ان الصورة الشرقية انعكست في اعمال هاينه بتأثير من اعمال الالمان والفرنسيين خاصة «الديوان الشرقي الغربي» لغوته التي تحول فيها الشرق لعالم روحي ومركز للهجرة والهروب من جحيم الحياة الغربية وجنة ارضية او مفقودة يعيش فيها الغربي متآلفا مع الطبيعة. يقول غوته «فلتهاجر اذا الى الشرق الطاهر الصافي وكي تستروح نسيم الاباء الاولين، هناك حيث الحب والشرب والغناء». وتحضر نفس الصور في تراجيديا المنصور لهاينه: اهبطي يا سليمى من قمرات قصرك المرمري الذهبية وامتطي جواد المنصور الاصيل.. ففي البلاد حيث ظلال النخيل تلطف الحر وحيث البخور ينبعث من الارض المقدسة؟ ولعل اهم ما اهتم به هاينه كان موضوع الحب العذري، فخاتمة تراجيديا المنصور هي مثل نهاية مجنون ليلى المأساوية. يرى المترجم ان تركيز الكاتب على العربي الاندلسي «المور» بدلا من العربي ان الصحراء هي نتاج للحركة الثقافية في عصره واهتمام الادباء مثل هيغو بما صار يعرف بحركة المور الرومانسية او المغاربية الرومانسية حيث اسبانيا علامة او تجسيد للشرق. ان الاثر الادبي والادبيات العربية واضحة في اهتمام هاينه بالشرق، واضافة للبعد العاطفي والشخصي او الازمة الشخصية فقد قرر هاينه تقمص العربي المسلم في هذه التراجيديا ليعكس من خلال مأساته كفرد يهودي اضطر لاعتناق البروتستانتية حتى يعين في الجامعة ويجسد بالتالي مشكلة اليهود الالمان، فالتراجيديا اذا مثقلة بالرموز الاجتماعية عن وضع اليهود في المانيا، كما تؤرخ التراجيديا ادبيا لعصر القلق الذي عاشه في نهاية القرن الثامن عشر، ففي هذه الفترة الزمنية بدأت اوروبا تعود لعادتها القديمة فمبادئ الثورة الفرنسية وتحرير اليهود الذي قام به نابليون اختفى تحت وقع المشاعر الشوفينية والطبقية، وحلت محلها النزعات المعادية لكل ما هو غريب، اليهود، وصار اليهودي عدوا للالماني المسيحي، وتعاون الكثير من رجال الدين والاكاديميين الذين برروا الفوقية والعنصرية الالمانية ضد اليهود، وهو ما ادى لولادة حركة يهودية معمدانية تهدف الى التحول للمسيحية حماية لهم ولعائلاتهم. ومن هنا فان مسيحية الثري الطيب علي هي مواز للحركة المعمدانية او المعمودية هذه. وفي نص هاينه انتقاد للحاخامات الذين برروا هذا التحول، ولكن على لسان الفقهاء حيث يقول «اذا كان هناك ايمان للبيع، فرجال الدين هم اول المبادرين». النص يمكن قراءته في بعده الباطني على انه شجب لهذه الثقافة العنصرية الالمانية حيث يتحدث هاينه في رسائله لاحد اصدقائه عن قرفه حتى من اللسان او الحرف الالماني «اللغة الالمانية تمزق آذاني»، والخطوط الالمانية «لها وقع مؤلم على اعصابي»، ولهذا يحن بعد ان يستعيض عن الالمانية في الرسالة نفسها بالفرنسية الى الهجرة لارض العرب «سأحيا حياة ريفية.. سأكون انسانا بكل ما في كلمة الحياة الريفية من معنى، سأعيش بين الجمال التي ليست طلابا، سأكتب ابياتا عربية، جميلة كالعلقات»، ويرى المترجم ان فكرة تعلق الشاعر بالمعلقات جاءت من تأثير غوته الذي احتفل بها واعتبرها صورة عن الافق اللانهائي، التعددي المفتوح، وتعبيرا عن العبقرية الشعرية العربية. ولهذا شكلت المعلقات ارضية للشاعر هنا لكي يواجه الرجعية الالمانية، وفيها ايضا حديث عن اضطهاد جديد لليهود ورحيل خاصة ان الحدث الاندلسي يعطيه رؤية عن الدياسبورا الجديدة، فبين علي الذي فضل البقاء والتخلي عن الاسلام «هكذا اصبح علي مسيحيا»، وبين عبدالله الذي هرب بدينه او كما يصف المنصور المشهد «مضينا نصف متريثين ونصف مستعجلين»، حيث تنشقوا بنهم عطر البلاد، في ليل كانت تعوي فيه الذئاب، والعصافير ترفرف فوقهم وكأنها تودعهم او تلقي على الركب الصامت تحية الوادع، وما يلفت للنظر ان هاينه جعل عبدالله يعد الزاد والخمر و «الرقاقة القديمة المقدسة نفسها»، وهو يعرف ان عبدالله لا يشرب الخمر، حيث حمل عبدالله رؤية عن مصير اليهودي الالماني الذي سيجبر على الهجرة. في الكثير من المواقف في نص هاينه هذا، تعرية وانتقاد بل ولمز من الثقافة الشوفينية الالمانية التي تتمثل باحتقارها لـ«الغريب» حيث تظهر من كلمات احد الفرسان «وينتابني الضحك كلما افكر كيف ان نبي مكة الحصيف، نعم سيدي.. الخمر الخمر». ومثل كل ثقافة تنظر للغريب على انه مقتلع فالمنصور يواجه فارسا عربيا عندما سأله «كيف وصلت الى قلعتنا ايها الغريب؟» ويرد المنصور قائلا «انا من يطرح السؤال، هذه قلعتي»، ويمكن اسقاط هذه العبارات على واقع اليهود في المانيا. وتذهب المسرحية بعيدا لكي تظهر كيف تقوم الثقافة هذه بالغاء «الاخر»، حيث حل محل البيوت القديمة «ايمان جديد»، ويتم الغاء هوية القديم الغريب، وتحرق كتبه «سمعنا ان اكسيمنس الرهيب/ لساني يتجمد في فمي، قد القى بالقرآن وسط سوق غرناطة في لهيب الحطب..» ويجيب الخادم حسن قائلا «لقد كان ذلك مقدمة فقط فحيث تحرق الكتب يحرق البشر في النهاية ايضا»، ما يثير في نص هاينه هو تصويره للمسخ والتشوه الذي يحصل على الغرباء الذين يتركون دينهم او جماعتهم حيث يصبحون تنابلة يؤمنون بما يقوله السيد «لقد كان احراق الهراطقة رائعا» فيرد الطيب علي، المسيحي الجديد «الحمد لله، لقد سمعت ذلك ايها المحترم. دعنا نتمتع الان بالعاب المهرجين»، حسن في النص هو النقيض عن التحول الذي مثله الطيب علي، فهو يعرف ما يحدث من تشوهات على النفس عندما تحاول تقليد الاخر المنتصر يقول مستغربا من لباس المنصور الاسباني «كيف وصل جسدك الى هذا اللباس الاسباني؟ من زين الجواد البربري الاصيل بجلد الافعى هذا الفاقع الالوان؟». حسن يمثل مع حواريه فصيلة آخذة في الانقراض تعتمر رؤوس الجبال المثلجة وقلوبها تطفح بنار الايمان «انهم بقايا اولئك الخدم الاوفياء، الذين ما زال الله يملكهم في هذه البلاد.. آه ان عددهم قليل ويتناقص يوميا، في حين ان عدد الانذال يزداد يوميا»، حسن يعرف ان غرق غرناطة لم يأت من الخارج ولكن من اصحاب الولاءات المزدوجة الذين قسموها واشعلوا فيها نار الحقد. المنصور العائد الذي يحمل معه ذكريات الوطن المفقود والمهجر، بلاد العرب، هو شخصية تائهة، وافق في النهاية على التضحية بدينه وبهويته من اجل عشيقته التي تنصرت، وعندما تتنكر له يحملها في رحلة انتحار جماعية ويهوي بها بين صخور الوادي. هاينه في نصه هذا يتكىء، يسقط ويتقمص العربي التائه، حيث يرى ان هناك معادلا او موازيا لأزمة اليهودي في المانيا ليل.. أو يمدد ساقيه على «الطراحة»، ويسرد الحكايا.

ومن الممكن أن يصير هذا الكرسي مكتبا، يتربع أمامه، ويخط عليه رسالة لولده المغترب، أو يفرد عليه «قواشين» الأرض، ويراجعها. أو يوقع عليه عقد بيع، أو ضماناً مع طرف ثان.

و في رمضان تحديدا ترى الفلاح الأردني يجلل الكرسي «بالصلوة»، ويضعه أمامه، ثم يفتح المصحف الشريف فوقه، ويتلوا القرآن، وهو يهز جذعه الى الأمام والى الخلف برتابة. أما المسن الذي يضطر أن يصلي جالسا.. فيضع الكرسي أمامه ليسجد عليه.

هذا الكرسي الصغير، كان يستعمل «مفرمة»: يفرم عليه الفلاح الأردني تبغه، ويقطع عليه اللحمة في عيد الأضحى، وكانت ربة البيت تنقي عليه العدس، وتفرم عليه الخبيزة، وتقطع البطاطا عليه أيضا..

(أما البصل فكانت تفرمه بطريقة فذة لكنها انقرضت: تمسك البصلة بيد، وتضربها ضربات سريعة قوية بالسكين، ثم تفرم باليد الأخرى الجزء الذي تشقق، وتعيد الكرة حتى «القمعة»).

وكان الكرسي يتنقل مع الفلاح حسب المواسم، فيجلس عليه أمام الدار في الظل أيام الصيف، ويجلس عليه مسندا ظهره للحائط الشمالي مستمتعا بدفء الشمس في الشتاء.. وكان يستعين بالكرسي ليقف عليه، ويتناول شيئا عن رف «الشاشية»، أو من فوق «الكوايز».

كما كان يستعمل الكرسي للاستحمام أيضا: يضع لقن الغسيل بعتبة البيت، وسطل الماء الساخن والمغرفة بجانبه، ثم يأتي بالكرسي «ما غيره» يضعه باللقن ويخلع ملابسه عليه ثم يجلس فوقها ويستحم.. وحين كان يحلق ذقنه، كان يقلب الكرسي على جنبه، ويركز المرآة على خشبته.. ويضع «مغرفة» الماء الساخن، وصابونة المفتاحين، والفرشاة المبقعة قاعدتها ببقايا طلائها الأسود، وقد تآكل وبرها، فوق الكرسي..).

لعبة الكراسي تطورت كثيرا هذه الأيام.. وصارت كلمة كرسي مصطلحا للدلالة على السلطة والنفوذ.. وصار الناس يخدمون الكراسي وليس العكس فقد رغبنا أن نعيد للأذهان صورة الكرسي البسيط متعدد الاستعمالات الراسخ في الذاكرة الشعبية .

الشارع

في الأزمة اللبنانية الحالية كثر الحديث عن الشارع بحيث أعاد الاعلام الرائج الى الذهن كلمة الشارع كمصطلح ذي دلالات مختلفة.. فمثلا يخطر بالبال أن الشارع «متمرد» في الأصل.. لذا لا مناص من تعبيده ليسهل «اختراقه» والسير عليه.. ثم تطورت أدوات السيطرة، فصار لا بد من «تزفيته» أيضا!

سياسيا استعملت كلمة «الشارع» لتدل على العامة من الناس.. فيتحدث السياسيون، وفقط في الأزمات، عن الاحساس « بنبض الشارع» باعتباره قلب المجتمع الذي يخفق بحبهم، ويتحدثون عن «النزول الى الشارع» بمعنى التظاهر و«دب الصوت» ومغادرة الأغلبية الصامتة لبيوتها وأعمالها وسياراتها، ونزولها الى الشارع لتصير قوة «صائتة» بعد أن كانت صامتة.

في الشأن الثقافي، هناك شارع الثقافة، وشارع الصحافة.. وثمة كتب تسمت بأسماء شوارع، وهناك من يكتب، أو يصرح ليرضي «الشارع» وعندها تسمى هذه الكتابة «للاستهلاك المحلي»، وهناك من يترفع عن الكتابة للشارع ويتجه للنخبة، ودائما هناك تضاد غير مصرح به ومسكوت عنه بين النخبة و«الشارع».. لكن النخبة عادة ما تكون أكثر مهارة في استثمار «نبض الشارع» وأقدر على «تعبيده»، وهناك مرات قليلة في التاريخ التي انتصر فيها « الشارع» على النخبة. وفي الشأن الاقتصادي نجد في بغداد شارع البنوك، وفي نيويورك شارع المال والأعمال، ناهيكم عما يتفرع عن الشوارع الهامة من أسواق كسوق السكر، وسوق الصاغة، وسوق الشورجة، وسوق «العبي ـ أي العباءات».. وسوق «الهال»، وسوق الحميدية، وسوق الموسكي.. الخ.

أما في المنحى الاجتماعي فنجد حضوراً مجازيا لكلمة «الشارع» في اللغة اليومية للناس، مثل قولهم «أولاد شوارع».. أو «عاكسها في الشارع».. الخ.

خارج المصطلح نستطيع أن نتحدث عن شوارع لها شخصيات مميزة وشهرة خاصة بها، وصارت شوارع نخبة «بذاتها».. أي أن الشارع بذاته قد فرض نفسه كاسم علم، وصار معلما، مثلك شارع الرشيد في بغداد، وشارع عشرة داوونغ ستريت في لندن، وجادة الشانزليزه في باريس، وشارع أربات في موسكو، وغيرها، وهناك شوارع لها أسماء عنيدة لا تقبل التغيير مثل شارع الأميرات، وشارع الجاردنز، وشارع السينما..

يستدعي الحديث عن الشارع مصطلحات أخرى مرتبطة بالشارع مثل: «تمرّ أمتنا بمنعطف خطير» فالمنعطف الخطير و«المنعطف التاريخي» و«المنزلق الخطر الذي يدفعنا له الخصوم» و«الوصول في المباحثات الى طريق مسدود» هذه وغيرها مصطلحات مشتقة بل متفرعة من الشارع..

حماكم الله من «الطرق الملتوية» و«الأزقة المعتمة».. وبمناسبة حلول فصل الشتاء، وقاكم الله شر «المنزلقات الحادة»، وطرطشة الماء بسبب السيارات المسرعة.

الخبز

لم يقل الصينيون اللهم اعطنا «رزنا» كفاف يومنا.. ولم يقل الأوروبيون ليس «بالبطاطا» وحدها يحيا الانسان.. لكنه السيد المسيح النبي الفلسطيني ابن سورية البار هو الذي قدس الخبز ومجده للعالمين.

في بلادنا ومنذ «سومر» وأفاميا» اقترن الخبز بالماء كعنصرين أساسيين للحياة.. الماء متوفر بالطبيعة أو يجري البحث عنه أو استجداؤه من مصادره.. الا أن الخبز بحاجة لجهد الانسان ليصير خبزا، لذا فانه احتل مكانة مرموقة في الثقافة الانسانية عموما، وفي ثقافتنا العربية بشكل خاص، وقد ربط المصريون أسباب الحياة بالخبز فأسموه «عيشا».. ورغم أن كلمة «زاد» تدل عل ما يتزود به الانسان من طعام الا أنها عند البدو تدل على الخبز وكأن أنواع الطعام تختزل كلها في الخبز.. وسمي الكيس الذي يحمل به الزاد «زوّادة» ومزودة. ربما لأن زاد المسافر كان يقتصر على الخبز والماء.. وترددت كلمات الخبز والرغيف والزاد في الأغاني والأشعار والقصص العربية لتعبر عن مدى ارتباط حياتنا بالخبز.. تحضرني الآن عناوين كتب « الخبز الحافي» لمحمد شكري، و«كسرة خبز» لسامي الجندي، وقصة بيرل باك الشهيرة «بائعة الخبز»، وغيرها كثير.

في بلادنا نعزّ الخبز كثيرا فنرفعه عن الأرض تقربا به الى السماء، والمائدة لا تكون مائدة والزاد لا يكون زادا اذا خلا من الخبز..

(كانت أمي تكافئني اذا أتقنت عملا بأن تخفق بيضة مع قليل من الطحين وتسكبها على «صمامة» الطابون، وترش عليها قليلا من الملح الخشن والفلفل الأسمر حتى تنضج.. كان اسمها في بيت جدي «خبزة هاشم»!.. اختفى الملح الخشن، واختفى الطابون، وضاعت تلك النكهة للأبد).

في السفر والكوارث والحروب والرحيل نتفقد مؤننا من الخبز، واذا أمطرت السماء تزاحمنا عند الأفران لنؤمن بيوتنا بالخبز لأننا نتناول الطعام بالخبز، ولكن ليس على طريقة السيد «سندويش» بل على طريقتنا الخاصة « الغموس».. والغموس فخر أهل الشام ومصر دون سائر البلدان.. هنا ، «نغطّ» الخبز باللبن أو بالزيت أو بالشاي أو بالطبيخ، حتى أننا ندس الخبز تحت أرز «المنسف» الذي لا يغمس. وان ضاق بنا الحال نغمس خبز المدينة «بالشراك»، ونأكل خبزاً وماء مدّعين أن «الخبز الحاف يعرض الكتاف» ونحمد الله..

حتى في العيد لا نستغني عن الخبز فنعد للعيد عدته بالخبز أيضا، وذلك بأن نضيف بعض المحسنات على الرغيف ونسميه: «خبز العيد» فقط في رمضان يقل استهلاكنا من الخبز! ويزيد استهلاكنا للرز والتمر والقطايف والقمر الدين.. ربما تراجع استهلاك الخبز في رمضان بسبب وفرة أصناف «الغموس»: فـ«مرقة العدس» التي كنا نفت فيها الخبز الجاف، ونعدها وجبة كاملة صار اسمها «شوربة» مجرد صحن صغير على هامش المائدة الرمضانية.

والقمر الدين الذي كان يمرس بالماء، ثم يغمس بالخبز.. صار شرابا اختياريا على جانب المائدة الرمضانية.. وضاع الرغيف بين أنواع من الصحون والصواني وتسيدت المعلقة والشوكة والسكين المائدة.

* كاتب من الأردن

الكرسي والشارع والخبز: قراءة شعبية

هاشم غرايبة*

الكرسي

■ كان الفلاح يستعمل الكرسي ليتكئ عليه.. يضع عليه مخدة الصوف، ويغز كوعه عليه، ويضع راحته تحت رأسه، ويغني يا ليل.. أو يمدد ساقيه على «الطراحة»، ويسرد الحكايا.

من نص من المسرحية:

حسن: لقد التحقت بأولئك المجاهدين
الذين لجأوا إلى الجبال،
إلى القمم الباردة بقلوبهم الدافئة.
فكما ان الثلج هناك فوق لا يذوب ابدا،
كذلك لم تخبُ الشعلة في صدورنا،
وكما ان تلك الجبال لا تتزعزع ابدا
فايماننا لم يتزعزع ابدا،
وكما تتدحرج الصخور غالبا
من تلك الجبال محطمة كل شيء،
هكذا كنا ننقض غالبا من تلك المرتفعات
على النصارى في الوادي ساحقين اياهم،
وعندما كانوا، الأوغاد، يتحشرجون لافظين
انفاسهم،
وأجراس الحداد كانت تئن من بعيد
وتراتيل الخوف العميقة تتخللها،
عندها كان ذلك يطن في آذاننا مثل الشهوة.
إلا ان الدوق اكيلار وفرسانه ردوا منذ زمن غير بعيد
على مثل تلك الزيارات الدموية،
اذ عزف لنا الرقصة الاخيرة،
وعلي دوي الأبواق الصامة للآذان،
وعلى الصدى العميق لوقع طبول الحرب،
وعلى رنين آخر رقصة كاستيلانية،
وعلى الأزيز الساخر الواضح للطلقات،
تطاير بعض العرب فجأة في السماء،
وقلة منا فقط نجت من باحة الرقص.
ولكن تكلم ايها المنصور، ماذا جرى لكم؟
فلقد هربت قبلا مع اولئك الرفاق الى هنا،
ووجدت فقط صالات مقفرة، وبكآبة
رمقتني هذه الجدران العارية من عل،
واحاسيس حزينة اوحى بها هذا القصر الحزين.
المنصور:
لا تطلب اغنية حداد، دع الموتى الاحياء
وآلام المنصور نائمين.
لقد رأيت فيما مضى كيف ان الطيب علي
جلب البلاء الى هنا على جواد اسود.
لا تأتي المصائب ابدا من دون صحبتها!
يوميا كانت الاخبار السيئة تأتي من غرناطة،
وكما يهوي الرحالة بوجهه على الارض
حين تهب عليه رياح السموم الحارقة،
هكذا كنا نهوي غالبا على الارض منتحبين،
حتى لا يقتلنا نفس المخبرين السام.
ولاحقا سمعنا بردة رجال الدين،
المرابطين والفقهاء.
حسن:
اذا كان هناك ايمان للبيع،
فرجال الدين هم أول المبادرين.....

■ كان الكرسي يتنقل مع الفلاح حسب المواسم، فيجلس عليه أمام الدار في الظل أيام الصيف، ويجلس عليه مسندا ظهره للحائط الشمالي مستمتعا بدفء الشمس في الشتاء.. وكان يستعين بالكرسي ليقف عليه، ويتناول شيئا عن رف «الشاشية»، أو من فوق «الكوايز».

كما كان يستعمل الكرسي للاستحمام أيضا: يضع لقن الغسيل بعتبة البيت، وسطل الماء الساخن والمغرفة بجانبه، ثم يأتي بالكرسي «ما غيره» يضعه باللقن ويخلع ملابسه عليه ثم يجلس فوقها ويستحم.. وحين كان يحلق ذقنه، كان يقلب الكرسي على جنبه، ويركز المرآة على خشبته.. ويضع «مغرفة» الماء الساخن، وصابونة المفتاحين، والفرشاة المبقعة قاعدتها ببقايا طلائها الأسود، وقد تآكل وبرها، فوق الكرسي..).

لعبة الكراسي تطورت كثيرا هذه الأيام.. وصارت كلمة كرسي مصطلحا للدلالة على السلطة والنفوذ.. وصار الناس يخدمون الكراسي وليس العكس فقد رغبنا أن نعيد للأذهان صورة الكرسي البسيط متعدد الاستعمالات الراسخ في الذاكرة الشعبية .

الشارع

في الأزمة اللبنانية الحالية كثر الحديث عن الشارع بحيث أعاد الاعلام الرائج الى الذهن كلمة الشارع كمصطلح ذي دلالات مختلفة.. فمثلا يخطر بالبال أن الشارع «متمرد» في الأصل.. لذا لا مناص من تعبيده ليسهل «اختراقه» والسير عليه.. ثم تطورت أدوات السيطرة، فصار لا بد من «تزفيته» أيضا!

سياسيا استعملت كلمة «الشارع» لتدل على العامة من الناس.. فيتحدث السياسيون، وفقط في الأزمات، عن الاحساس « بنبض الشارع» باعتباره قلب المجتمع الذي يخفق بحبهم، ويتحدثون عن «النزول الى الشارع» بمعنى التظاهر و«دب الصوت» ومغادرة الأغلبية الصامتة لبيوتها وأعمالها وسياراتها، ونزولها الى الشارع لتصير قوة «صائتة» بعد أن كانت صامتة.

في الشأن الثقافي، هناك شارع الثقافة، وشارع الصحافة.. وثمة كتب تسمت بأسماء شوارع، وهناك من يكتب، أو يصرح ليرضي «الشارع» وعندها تسمى هذه الكتابة «للاستهلاك المحلي»، وهناك من يترفع عن الكتابة للشارع ويتجه للنخبة، ودائما هناك تضاد غير مصرح به ومسكوت عنه بين النخبة و«الشارع».. لكن النخبة عادة ما تكون أكثر مهارة في استثمار «نبض الشارع» وأقدر على «تعبيده»، وهناك مرات قليلة في التاريخ التي انتصر فيها « الشارع» على النخبة. وفي الشأن الاقتصادي نجد في بغداد شارع البنوك، وفي نيويورك شارع المال والأعمال، ناهيكم عما يتفرع عن الشوارع الهامة من أسواق كسوق السكر، وسوق الصاغة، وسوق الشورجة، وسوق «العبي ـ أي العباءات».. وسوق «الهال»، وسوق الحميدية، وسوق الموسكي.. الخ.

أما في المنحى الاجتماعي فنجد حضوراً مجازيا لكلمة «الشارع» في اللغة اليومية للناس، مثل قولهم «أولاد شوارع».. أو «عاكسها في الشارع».. الخ.

خارج المصطلح نستطيع أن نتحدث عن شوارع لها شخصيات مميزة وشهرة خاصة بها، وصارت شوارع نخبة «بذاتها».. أي أن الشارع بذاته قد فرض نفسه كاسم علم، وصار معلما، مثلك شارع الرشيد في بغداد، وشارع عشرة داوونغ ستريت في لندن، وجادة الشانزليزه في باريس، وشارع أربات في موسكو، وغيرها، وهناك شوارع لها أسماء عنيدة لا تقبل التغيير مثل شارع الأميرات، وشارع الجاردنز، وشارع السينما..

يستدعي الحديث عن الشارع مصطلحات أخرى مرتبطة بالشارع مثل: «تمرّ أمتنا بمنعطف خطير» فالمنعطف الخطير و«المنعطف التاريخي» و«المنزلق الخطر الذي يدفعنا له الخصوم» و«الوصول في المباحثات الى طريق مسدود» هذه وغيرها مصطلحات مشتقة بل متفرعة من الشارع..

حماكم الله من «الطرق الملتوية» و«الأزقة المعتمة».. وبمناسبة حلول فصل الشتاء، وقاكم الله شر «المنزلقات الحادة»، وطرطشة الماء بسبب السيارات المسرعة.

الخبز

لم يقل الصينيون اللهم اعطنا «رزنا» كفاف يومنا.. ولم يقل الأوروبيون ليس «بالبطاطا» وحدها يحيا الانسان.. لكنه السيد المسيح النبي الفلسطيني ابن سورية البار هو الذي قدس الخبز ومجده للعالمين.

في بلادنا ومنذ «سومر» وأفاميا» اقترن الخبز بالماء كعنصرين أساسيين للحياة.. الماء متوفر بالطبيعة أو يجري البحث عنه أو استجداؤه من مصادره.. الا أن الخبز بحاجة لجهد الانسان ليصير خبزا، لذا فانه احتل مكانة مرموقة في الثقافة الانسانية عموما، وفي ثقافتنا العربية بشكل خاص، وقد ربط المصريون أسباب الحياة بالخبز فأسموه «عيشا».. ورغم أن كلمة «زاد» تدل عل ما يتزود به الانسان من طعام الا أنها عند البدو تدل على الخبز وكأن أنواع الطعام تختزل كلها في الخبز.. وسمي الكيس الذي يحمل به الزاد «زوّادة» ومزودة. ربما لأن زاد المسافر كان يقتصر على الخبز والماء.. وترددت كلمات الخبز والرغيف والزاد في الأغاني والأشعار والقصص العربية لتعبر عن مدى ارتباط حياتنا بالخبز.. تحضرني الآن عناوين كتب « الخبز الحافي» لمحمد شكري، و«كسرة خبز» لسامي الجندي، وقصة بيرل باك الشهيرة «بائعة الخبز»، وغيرها كثير.

في بلادنا نعزّ الخبز كثيرا فنرفعه عن الأرض تقربا به الى السماء، والمائدة لا تكون مائدة والزاد لا يكون زادا اذا خلا من الخبز..

(كانت أمي تكافئني اذا أتقنت عملا بأن تخفق بيضة مع قليل من الطحين وتسكبها على «صمامة» الطابون، وترش عليها قليلا من الملح الخشن والفلفل الأسمر حتى تنضج.. كان اسمها في بيت جدي «خبزة هاشم»!.. اختفى الملح الخشن، واختفى الطابون، وضاعت تلك النكهة للأبد).

في السفر والكوارث والحروب والرحيل نتفقد مؤننا من الخبز، واذا أمطرت السماء تزاحمنا عند الأفران لنؤمن بيوتنا بالخبز لأننا نتناول الطعام بالخبز، ولكن ليس على طريقة السيد «سندويش» بل على طريقتنا الخاصة « الغموس».. والغموس فخر أهل الشام ومصر دون سائر البلدان.. هنا ، «نغطّ» الخبز باللبن أو بالزيت أو بالشاي أو بالطبيخ، حتى أننا ندس الخبز تحت أرز «المنسف» الذي لا يغمس. وان ضاق بنا الحال نغمس خبز المدينة «بالشراك»، ونأكل خبزاً وماء مدّعين أن «الخبز الحاف يعرض الكتاف» ونحمد الله..

حتى في العيد لا نستغني عن الخبز فنعد للعيد عدته بالخبز أيضا، وذلك بأن نضيف بعض المحسنات على الرغيف ونسميه: «خبز العيد» فقط في رمضان يقل استهلاكنا من الخبز! ويزيد استهلاكنا للرز والتمر والقطايف والقمر الدين.. ربما تراجع استهلاك الخبز في رمضان بسبب وفرة أصناف «الغموس»: فـ«مرقة العدس» التي كنا نفت فيها الخبز الجاف، ونعدها وجبة كاملة صار اسمها «شوربة» مجرد صحن صغير على هامش المائدة الرمضانية.

والقمر الدين الذي كان يمرس بالماء، ثم يغمس بالخبز.. صار شرابا اختياريا على جانب المائدة الرمضانية.. وضاع الرغيف بين أنواع من الصحون والصواني وتسيدت المعلقة والشوكة والسكين المائدة.

* كاتب من الأردن

«رائحته مسكٌ؛ روحه بلسم»!!

أحمد المديني*

[1]

لابد أن «العثامنة»* تلك الليلة كانوا في البرزخ، لأن الصواريخ التي بحثت عنهم في كل شهاب لم تعثرمنهم سوى على ظل الروح، ، التي هي أخيرا من أمر الرب، أما الجسد فقد كان، طار، ليرتدي كفناً أبيض مثل حُليّ السحاب، ويغفو في غرّة الليل الساجي، هوالفراش والغطاء، البدء والمنتهى؛ كفنٌ مثل الأعلام البيض في مدخل المرافئ، تستقبل وتودع إلى ما لا نهايات الرحيل، وحتى عندما تنفد الأنفاس وتُرى آخر النوارس عائدة إلى ضفاف المعاد.

[2]

«العثامنة»أنفسهم لا يطيقون البقاء في سُرُرهم، ما دامت أرواحهم قد عافت الجسد منذ سفرالتكوين، وما ت